مهند السماوي*

مملكة الخوف:
هوس الانفاق الدفاعي السعودي

(1)

توطئة

هذه دراسة مختصرة حول اسس وثوابت السياسة العامة، الداخلية والخارجية، للمملكة العربية السعودية، ابداها بسياسة الانفاق الدفاعي السعودي، على مدى عقود من الزمن، وتوضيح مدى خطا تلك السياسة، التي اتبعتها العديد من الدول، مثل المجاورة للمملكة (ايران الشاه ـ وعراق البعث) او الدول الكبرى (الاتحاد السوفييتي السابق)، ثم اتبعها بحلقات او فصول اخرى حول الامن الداخلي السعودي وسياسة المملكة تجاه الاقليات فيها، والاقتصاد السعودي ودور النفط فيه، والسياسة الخارجية شبه الثابتة للمملكة السعودية، حاولت فيه الاختصار قدر الامكان.

مدخل البحث

في يوم واحد، تاتي الاخبار حول عقد المملكة العربية السعودية، صفقة عسكرية كبيرة مع فرنسا، تبلغ حوالي 7,85 مليار دولار امريكي طال الحديث عنها منذ عام تقريبا تتضمن شراء اسلحة متطورة منها 48 طائرة مقاتلة مع خيار شراء 48 طائرة اخرى بالاضافة الى اعمال الصيانة والخدمة والاستشارة. وفي نفس اليوم، ابلغت وزارة الدفاع الامريكية، الكونغرس الامريكي، حول امكانية بيع السعودية اسلحة تصل قيمتها الى 6 مليارات دولار، بعد ان حصلت الموافقة من قبل البيت الابيض عليها. وقبل هذا وذاك، تحدثت الاخبار قبل بضعة ايام، عن صفقة دفاعية ضخمة، بين السعودية وبريطانيا، سميت بصفقة العصر، تصل قيمتها في بعض التقارير الى 70 مليار دولار! وفي تقارير اخرى خجولة الى 30 مليار دولار، وبالتالي تاخذ اسم (صفقة العصر) من صفقة عسكرية سابقة، ايضا بين السعودية وبريطانيا عام 1985، تلك الصفقة الشهيرة التي سميت بـ(صفقة اليمامة) (1) والتي جرى تقسيمها الى مراحل نظرا لتكاليفها الباهظة وصادفت مع انخفاض اسعار النفط آنذاك، ووصلت الى حوالي 40 مليار دولار، منها فقط مليار دولار لصيانة 120 طائرة تورنادو الشهيرة! انها صفقات كبرى، يسيل لها لعاب الدول الكبرى! ولكن لماذا كل هذه الصفقات؟ يتساءل الجميع من سعوديين وعرب ومسلمين وغيرهم، ما عدا الدول المصدرة للسلاح، ما دام ذلك يكون في مصلحتها، وعاملا مهما على تنشيط الاقتصاد، وتوفير ملايين فرص العمل، هي في امس الحاجة اليها. هل المملكة العربية السعودية، في حالة حرب مع دولة اخرى؟ وهل السعودية قادرة على حماية نفسها من دول المنطقة المعادية لها او الدول الاخرى؟ وهل هي فعلا بحاجة ماسة الى تلك الاسلحة؟ واخيرا وهو الاهم، هل السعودية قادرة على استخدام تلك الاسلحة، او لديها الحرية الكاملة في التصرف بها؟ الجواب قطعي على تلك الاسئلة، وعلى اسئلة اخرى وهو: كلا.

فلماذا إذا هذا الاسراف الكبير في الانفاق الدفاعي والامني، وهل ان النفط السعودي لا ينفد؟ بالتاكيد الجواب لا، فلماذا اذن؟ هناك جواب مقنع للكثيرين، لكل الاسئلة السابقة، وهو: الخوف.

وهذا الانفاق لو تضاعف عدة مرات، فالخوف لا ينتهي ابدا، الخوف من كل شيء، وهو دائما ما تشعر به الاسرة الحاكمة التي تبسط سيطرتها المطلقة على الحكومة واجهزتها المختلفة، وتمتاز الاسرة الحاكمة، بكثرة عدد افرادها (15 الف ذكر او انثى) على اقل تقدير، وبتاريخ طويل من الحكم (حوالي 300 سنة تقريبا) ما عدا فترات زمنية مختلفة، ازيلت دولتهم ثم اعيدت لعدة مرات. وكذلك استنادها الى تحالف تاريخي متين مع اسرة كبيرة اخرى لها السلطة الدينية الشاملة، وهي اسرة مؤسس المذهب الوهابي الحنبلي المتشدد: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وبالتالي فإن الاسرة السعودية تمسك بزمام السلطة المدنية، والاسرة الوهابية والتي تعرف بآل الشيخ، بزمام السلطة الدينية، وبالتالي يكون هناك ترابط بين المملكة السعودية، والمذهب الوهابي، لا يمكن الفصل بينهما باي حال من الاحوال، مهما حاولت الدول الكبرى ذلك، او على الاقل الحد من تاثيره على المملكة، والانفاق السعودي الهائل على المذهب الوهابي، هو الذي سمح له بالاستمرار والانتشار، بعد ان انتهى دور السيف في اخضاع المخالفين، فقد قدر هذا الانفاق منذ عام 1975 ـ 2000 بحوالي (75 مليار دولار) في الداخل والخارج، ولو توقف هذا الانفاق نهائيا واعتمد المذهب الوهابي الحنبلي على معتنقيه فقط، في سد احتياجاته المختلفة، دون اي مساعدة من حكومة ما، كما هو الحاصل عند المذهب الشيعي الذي استمر رغم الاضطهاد المستمر الذي يصل حد الابادة الجماعية، بالاعتماد على انفاق مؤيديه، لانهار المذهب الوهابي، وبقي في حدود ضيقة جدا في بلاد نجد وقطر مع جماعات صغيرة متناثرة في زوايا باكستان وافغانستان.

الخوف هو من الداخل السعودي حيث الطوائف المختلفة في بلاد شاسعة (2,15 مليون كيلو مربع) وسكان يقدر عددهم بـ24 مليونا منهم اكثر من 7 ملايين مقيم غير سعودي، الاقلية الشيعية (25%) بمذاهبها الثلاثة: الجعفري والزيدي والاسماعيلي، بالاضافة الى المذاهب السنية الثلاثة الاخرى المتسمة ببعض الاعتدال، وهي الشافعي والمالكي والحنفي، وهي كانت مذاهب مسيطرة على بلاد الحجاز في السابق، وفقدت الان سيطرتها المذهبية عليها. الخوف ايضا من المتشددين انفسهم، التابعين للمذهب الوهابي، والذين يتهمون الاسرة الحاكمة بالابتعاد عن الدين والمذهب وبالفساد في ادارة الدولة، والاستحواذ على الاموال العامة وعدم الالتزام الشخصي بالشريعة، ويشجع هؤلاء عدد من رجال الدين الوهابيين المتشددين، وبعضهم له قاعدة شعبية لا باس بها.

الخوف ايضا من التيارات السياسية المعادية للاسرة الحاكمة، فبعد سقوط الاتحاد السوفييتي السابق عام 1991، تقريبا زال الخوف من التيارات الشيوعية واليسارية، لكن الخوف والحيطة والحذر ما زالت قائمة من التيار القومي، بشتى فروعه المختلفة كالناصري مثلا، ولحد الان فان هذا التيار، رغم الصدمات والازمات المتكررة التي لحقت به منذ نكسة 1967، فان له مؤيدين في المملكة، خاصة مع وجود انظمة عربية تدعم الفكر القومي، لكن الخوف اكثر يكون في افراد القوات المسلحة والاجهزة الامنية الاخرى بالاضافة الى تغلغلهم في اجهزة الدولة الاخرى، ويتزايد الخوف من اتباع هذا التيار مع كل ازمة تحصل مع اسرائيل، حيث يتهم مؤيدوه انظمة الحكم العربية وبخاصة المملكة بالمسؤولية عن ضياع فلسطين وعدم التصدي لاسرائيل، وطبعا هناك تحديات داخلية كثيرة تواجه المملكة السعودية وبعضها من داخل الاسرة الحاكمة، وصراع الاجنحة فيها وما يجره ذلك على ضياع الحكم، ويزداد الصراع بين المحافظين والمغتربين الذين درسوا او عملوا في دول الغرب المختلفة لفترات طويلة، واطلعوا على نمط المعيشة والحياة هناك وهذا الصراع ليس فقط داخل الاسرة الحاكمة بل ايضا في المجتمع ككل.

الخوف الخارجي، وهو المسبب الرئيسي للانفاق الدفاعي الهائل، بعكس الخوف الداخلي الذي يكون في الغالب المسبب الرئيسي للانفاق الامني الهائل، فالتحديات الخارجية ووقوع المملكة في منطقة الشرق الاوسط المضطربة وغير المستقرة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا كذلك احتواؤها على ربع الاحتياطي العالمي النفطي المؤكد، والمرتبة الرابعة في احتياط الغاز الطبيعي، يجعلها متاثرة بشكل او بآخر بالاحداث الخارجية، كذلك وجود الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وزيارة ملايين المسلمين لهما يجعلان المملكة من وجهة نظرها طبعا، مؤهلة لقيادة المسلمين في العالم.

الاخطار الخارجية للملكة السعودية، تاتي من وجهة نظرها بالدرجة الاولى من ايران ثم العراق الجديد، حيث يكون للاغلبية الشيعية نفوذ كبير في الدولة يتناسب والحجم الديمغرافي، ثم اسرائيل في حالة عدم اقرار السلام الشامل في المنطقة، كذلك تعتبر دول مثل اليمن ومصر (رغم ان العلاقات الان جيدة) دول يجب الحذر منها لان السياسة في العالم العربي تتغير بتغير الحاكم، كذلك الدولة الوهابية الثانية في العالم وهي قطر، تتميز علاقتها مع السعودية بتوتر شبه دائم، وايضا عمان والاردن ودول بعيدة مثل روسيا والدول الغربية التي تزعجها بين الحين والاخر حول حقوق الانسان في المملكة.

لكن الانفاق الدفاعي والامني الهائل، لم يجلب الامان الى المملكة العربية السعودية، فما زالت كبقية دول الخليج الاخرى تعتمد على الحماية الغربية بصورة دائمة، مما يجعل التساؤل الدائم عن ماهية وجدوى تلك الصفقات والانفاق الهائل، له مشروعية كبيرة لدى الجميع، اضافة الى ان محدودية العنصر البشري، في القوات المسلحة، وعدم استيعاب التكنولوجيا الحديثة المتطورة وعدم استخدام الاسلحة في حروب المنطقة المختلفة او دعم الدول العربية بها، او حتى السيطرة غير الكاملة على تلك الاسلحة في حالة استخدامها، مثار استغراب داخلي وخارجي. والمشاركة المسلحة السعودية في الصراع مع اسرائيل محدودة جدا او في حروب الخليج الثلاث وغيرها. والتالي جدول يبين حجم الانفاق الدفاعي في منطقة جنوب شرق اسيا ومقارنتها مع السعودية حيث بعض دولها يفوق عدد سكانها، عدد سكان السعودية وبعضها مثل استراليا تزيد مساحتها عن السعودية 3,6 مرة.

جدول رقم (1) والنفقات بالمليار (دولار امريكي).

الدولة	1993	2000	2003
السعودية	16,3	20	24,3
استراليا	6,8	7,4	8,8
ماليزيا	2,2	1,9	2,5
اندونيسيا	2,3	2,3	2,3
الفلبين	0,9	1,2	1,1
فيتنام	1	2,1	2,4

المصدر Australia p.88 year book 2005

تم اختيار عام 1993 كون حرب الخليج الثانية انتهت منذ عامين ومحادثات السلام مع اسرائيل مستمرة، لذلك ليس هنالك من داع للانفاق الهائل، كما ان جميع سكان الدول السابقة، يفوق عدد سكانها ما عدا استراليا (20 مليونا)، سكان السعودية المقدر عام 2006 بحوالي 24 مليونا، منهم اكثر من 7 ملايين من المقيمين، كما يوجد في بعض الدول السابقة صراعات داخلية مسلحة واضطرابات مختلفة، مما يستلزم زيادة الانفاق الدفاعي، ولكن مع ذلك لا يقارن بالانفاق الدفاعي السعودي. المقارنة الاكثر اثارة ان استراليا مثل السعودية تحت الحماية الغربية الدائمة، وسكانها مقارب للسعودية، ومساحتها 3,6 اضعاف، وتستخدم نفس التكنولوجيا العسكرية الغربية المتطورة، لكن عدد القوات المسلحة الاسترالية هو نصف عدد القوات المسلحة السعودية! والنفقات هي الثلث! رغم ان مستوى المعيشة في استراليا يفوق كثيرا مستوى المعيشة في السعودية!

والجدول رقم (2) يبين فيه الانفاق الدفاعي وحجم القوات العاملة حسب الترتيب في العالم لعام 2002 ـ 2003.

والمصدر هو THE WORLD ALMANAC 2004 وهي موسوعة شهيرة:

الدولة	العدد	الانفاق الدفاعي بالدولار الامريكي
الصين	2,270 مليون	46 مليار
امريكا	1,414 مليون	322 مليار
الهند	1,298 مليون	14,2 مليار
كوريا الشمالية	1,098 مليون	2 مليار
روسيا	988 الف	63,7 مليار
كوريا الجنوبية	686 الف	11,2 مليار
باكستان	620 الف	2,4 مليار
ايران	520 الف	4,7 مليار
تركيا	514 الف	7,2 مليار
مصر	443 الف	4,3 مليار
سورية	319 الف	1,9 مليار
اندونيسيا	297 الف	2,3 مليار
المانيا	296 الف	26,9 مليار
فرنسا	260 الف	9,32 مليار
اليابان	239 الف	39,5 مليار
بريطانيا	210 الف	34,7 مليار
السعودية	124 الف	24,3 مليار

(الترتيب 30 من ناحية العدد و8 من ناحية الانفاق في العالم)

يتبين لنا من الجدول السابق الفرق الهائل بين حجم القوات ومقدار الانفاق عليها في السعودية.

وكانت المملكة، الاولى في العالم من ناحية الانفاق على العسكري الواحد حتى السنوات القليلة الماضية. اما العدد فمن المحتمل انه بدون حساب الحرس الوطني في هذه الاحصائية. كذلك هناك كمية الاسلحة المتواجدة في السعودية لا تقارن بحجم الانفاق، يعني مثلا ان دول تنفق اقل بكثير من السعودية، ولكن تملك اسلحة اكثر، كالدبابات مثلا في الهند (7,782) وباكستان (2,100) وتركيا (4,200) ومصر (3,600) وسورية (4,700) بينما السعودية (1,050) او عدد الطائرات المقاتلة (340)، لذلك كان من المفروض حسب تلك النفقات الهائلة، ان تكون لدى السعودية كمية هائلة من الاسلحة البرية والبحرية والجوية، بالاضافة الى حجم كبير في القوة البشرية العاملة في مجال الامن والدفاع، لان تشغيل تلك الاسلحة يحتاج الى اعداد كبيرة، واخيرا وهو الاهم، هو وجود قوة ردع كبيرة للسعودية تجعلها غير محتاجة للقوات الاجنبية والتحالف مع دول اخرى لحمايتها، بل قوة عسكرية كبيرة قادرة على الدفاع عن حلفاء المملكة في الخليج وغيره، وكل ذلك لم يحدث اطلاقا، فالارقام موجودة في معظم وسائل الاعلام وهي ماخوذة من اشهر المعاهد الاستراتيجية في العالم.

وحسب الميزانية العامة السعودية لعام 2006 والبالغة 89 مليار دولار، يقدر الانفاق الدفاعي والامني بثلث الميزانية على اقل تقدير اي اكثر من 30 ـ 35 مليار دولار، الا ان الانفاق سوف يتجاوز هذا الحاجز بكثير لان اسعار النفط في اعلى مستوياتها ومحتمل ان يتجاوز حاجز الـ50 مليار دولار! لان تقديرات مجموعة سامبا المالية السعودية حول الانفاق الدفاعي والامني لعام 2005 بحوالي 48,8 مليار! وهو مبلغ خيالي لدولة عربية وتصنف ضمن العالم الثالث، وكانت الايرادات النفطية السعودية قد وصلت عام 2005 الى 157 مليارا بفضل ارتفاع اسعار النفط العالمية، بينما قدرت مجموعة سامبا، ان تصل الايرادات عام 2006 حوالي 203 مليار! بينما يصل حجم الميزانية الامريكية العامة الى 2770 مليار دولار! خصص للدفاع والامن رغم الحرب على الارهاب وخاصة في العراق وافغانستان حوالي 439 مليار وهو مبلغ هائل لكن اذا قيس بحجم الميزانية العامة الكلية يكون 15,8% بينما في السعودية الثلث! واذا قيس بحجم الناتج القومي الاجمالي والذي وصل في امريكا عام 2005 حوالي 12,360 مليار دولار! اي 41,500 دولار للفرد الواحد، بينما في السعودية يصل الناتج الاجمالي الى 293 مليار دولار وبالتالي دخل الفرد الواحد دون 13,000 دولار! رغم الايرادات البترولية الضخمة، وبالتالي تكون نسبة الانفاق الدفاعي الامريكي الى الناتج القومي 3,2% بالمقارنة مع السعودية اكثر من 16%. وكانت النسب لعام 2002 هي 3% و12,9% على التوالي.

حالة القوات المسلحة:

رغم الانفاق الدفاعي الكبير، ما زالت القدرة الدفاعية السعودية هشة الى حد كبير، والامكانات البشرية ما زالت دون مستوى النفقات، فاخر احصائية متوافرة عن القوة البشرية العاملة في المجال الدفاعي والامني السعودي هي التالية:

70 الفا في الجيش
57 الفا في الحرس الوطني
22 الفا في سلاح الجو
13 الفا في البحرية
2 الف في الحرس الملكي
المجموع الكلي 164 الفا (في احصائية اخرى 171,500 فرد)

يضاف الى ذلك 75 الفا في الاحتياط، و10 الآف في وزارة الداخلية (مع عشرات الالاف في المباحث) وايضا 15 الفا حرس حدود يضاف اليهم 30 الفا من رجال البادية، كل ذلك لحماية النظام. ويتكون سلاح الجو من 340 طائرة مقاتلة، العاملة منها 256 طائرة، وطائرات النقل 51 والعاملة منها 38 طائرة، وطائرات الهليكوبتر 228 طائرة، اما المدفعية 780 مدفعا والعاملة 410.

وبالمقارنة مع دول اخرى في الشرق الاوسط، ولنختار دولتان وهما حسب المنظور السعودي، معاديتان، واقصد بهما ايران واسرائيل، فالدولتان تنفقان اقل بكثير من السعودية، فايران انفقت (6,080 مليار) عام 2003 واسرائيل ميزانيتها 7,4 مليار يضاف اليها ثلثا المساعدات الامريكية السنوية والبالغة 2,28 مليار، فيكون المجموع حوالي 9,4 مليار دولار.

اما القوة البشرية العاملة في القوات المسلحة (ايران 520 الفا يضاف لهم 350 الفا احتياط و2 مليون قوات الباسيج اي التعبئة الشعبية) اما اسرائيل (186,500 يرتفع الى 631 الفا احتياط) والبلدان يملكان من الاسلحة اضعاف ما تملك السعودية، ولديهما قدرة صناعية متطورة للانتاج الحربي، والبلدان يصدران الاسلحة وخاصة اسرائيل التي تعتبر من البلدان الاكثر تصديرا للسلاح في العالم، ومن كفاءة ونوعية عالية، بينما لا تملك السعودية اي قدرة صناعية وتكنولوجية على انتاج السلاح، وهذا امر مثير حقا للاستغراب، خاصة في بلد ينفق كثيرا على الدفاع ويقع في منطقة مضطربة، ويملك قاعدة صناعية لا باس بها في مجال الطاقة وغيرها. فلماذا هذا الاخفاق في بناء صناعة عسكرية على الاقل تسد حاجة القوات المسلحة، وتوفر للدولة مليارات الدولارات سنويا اضافة الى تشغيل العاطلين عن العمل، لا بل ان السعودية غير قادرة على صيانة الاسلحة التي تشتريها، وتنفق مبالغ هائلة لصيانتها، لذا نجد ان جزءا من الصفقات يكون للصيانة، فيكون مبلغ مليار دولار شيء عادي لصيانة بضعة عشرات من الطائرات، وهذا امر صعب لغالبية دول العالم، فاذا كانت الصيانة بهذا الشكل، وبتلك التكاليف، بالتاكيد تكون السعودية سوقا مربحة للشركات المصنعة للسلاح، ناهيك عن العمولات الضخمة التي يتلقاها الوسطاء واصحاب القرار.

مسالة مهمة اخرى، هي ان الكثير من السلاح الموجود هو تحت ادارة خبراء غربيين، او لا يحق للمملكة الاستخدام الكامل بدون قيود او شروط، وكلنا يتذكر صفقة الاواكس الشهيرة الضخمة عام 1981 التي قدرت حينها بحوالي 8,5 مليار دولار، والشروط الصعبة التي وضعت لانجازها.

الخلاصة:

يجتاح السعودية هوس كبير بالانفاق الدفاعي منذ الارتفاع الكبير في اسعار النفط عام 1973، ولم تغير من سياستها تلك منذ ذلك الحين بل ارتفع التسلسل من المرتبة الثامنة عالميا عام 2002 الى المرتبة السادسة عام 2005 ولا ادري ما سوف يكون عليه الترتيب بعد بضع سنوات من الان، ولم تحقق لها تلك السياسة الاهداف المرجوة منها، ودول كثيرة في العالم تنفق اقل بكثير، ولكن لديها الكفاءة العالية والردع الكافي، وهما غير متوفرين لدى السعودية، ناهيك عن تبذير مئات المليارات لحد الان دون الاستفادة منها، والارادة الشعبية غير موجودة في الداخل لتغيير تلك السياسة العبثية الضارة وغير العقلانية.

المطلوب ايقاف ذلك النزيف المالي المستمر ومراعاة الداخل والخارج، والاستفادة من التجارب الاخرى، لدول انهكها الدفاع والامن وتسبب في سقوطها المحتوم، ولا يحتاج سوى ارادة شجاعة وباختصار اكثر... التحرر من الخوف.

* كاتب من العراق
Mohaned68@hotmail.com

الهوامش (1): اكبر صفقة في القرن العشرين تنقسم القسمين: الاولى عام 1985 والثانية عام 1988 وزادت قيمتها عن 30 مليار دولار، ووصلت العمولات فيها الى مئات الملايين من الجنيهات الاسترلينية.

حيفا: هجرة مؤقتة من المدينة المؤقتة

أسماء عزايزة*

لم تجعلني شوارعها يوما أشعر بأنها أصبحت «إسرائيلية».. فرغم عدمية الأشياء، المعالم العربية وبيوت الحجر القديمة ذات الشرفات الصغيرة ووجوه المارين المتشابهة، فقد كانت لي! كانت لي بحداثتها ورائحة طعامها السريع وحاناتها ووجوه ماريها الأشكنازية والتايلاندية وأسماء شوارعها العبرية.. لم لا أقبل بها هكذا؟ ما دام هذا ليس إلا ثوب المدينة الجديد. أما جسدها فكان يختبئ هنا وهناك، في الأزقة وفي المصابيح الليلية.. في الطرقات المبلطة وفي وجوه أناسها السمراء وفي عيونهم الثاقبة والمترقبة. كنت أراها وحدي.. عارية كما خلقها مهجروها. ولكنهم ما انفكوا يتغزلون بها وببحرها وكرملها، وينظمون لها قصائد عذرية، حتى تركوها للغاصبين كما هي.. ولتردي ما شاءوا ولتتحلى بما شاءوا ولتتجمل كيفما شاءوا.. أما هم، فكتبوا مراثيهم ونعوها للمرة الأخيرة! من قال انها شيّعت؟ من قال ان المدينة تسكن قعر بحرها؟ هل قلتم بأنها اغتصبت؟ هي أنبا من أن تقبل بارتداء القناع.. إني أراها دونه كل يوم، فألمس تفاصيلها بيدي وأدوس حيث داسوا وأمر حيث مرت عرباتهم وأتجول حيث تحدثوا أحاديثهم العامة وأختبئ من حر الشمس حيث اختبأ عشاقهم وأشتم رائحتها الأولى وهي تمتزج بعرق الصيادين وحبر الشعراء.. كنت أنظر إليها كل يوم.. ترقبني من بعيد.. وتبتسم! أعلم ما سر هذه الابتسامة، هي ابتسامة اشتياق لأنني أراها دوما.. هي ابتسامة شبق وخجل لأنني عريتها ورأيتها كما هي.. أما الآن، وبعد هجرتي.. هجرني هذا الشعور. «سنضرب حيفا» كانت كافية لأن تشعرني بأن المدينة «إسرائيلية» فيرجع القناع بلحظة، وتزول معه نظرات المدينة لتختبئ خلف العيون الغريبة.. وتتلاشى الرائحة لترقد بين صفحات كتب الدراسات التاريخية وتستكين أصوات الأقدام الآتية حيث اللاحياة.. وينزح من عرّى المدينة يوما.. تاركا خلفه ابتسامتها الثقيلة.

أخاف عليها من الخدوش.. ولكني أريد لثوبها اللعين المؤقت هذا أن يتمزق.. حاسبوا.. حاسبوا لئلا تجرحوا جسدها أو تعرضوه للرياح الباردة فيمرض أو للشمس فيحترق أو للبحر فيغرق.. شمس حيفا الآن شاحبة.. لم تعد تغني لعصافيركم أغنيات الصباح الأولى ولم تعد تصبّح عليكم وعلى قهوتكم الساخنة. رياح حيفا الآن غاضبة على الحجر، فلم تعد تداعبه في الظهيرة أو تكتب له أغنية ليرقد في الظلال.. إياكم وبحر المدينة.. ها هو يهرب من عروسته ويثأر من الرمال الخفيفة والقمر.. انظروا إليه ليلة يومكم هذا.. مراهقا.. لا يضيء إلا على أزقة العاشقين وحانات السهر.. إياكم وشطآنها.. نأت عن أحلامكم وصيفكم الدافئ وفرّت إلى البعيد إلى البعيد.. كرمل حيفا الآن أصغر.. لم يعد يتسع إلا لحفنة من ترابكم الأحمر ومكان لأربع أقدام مجهولة.

عدت إليها ليوم واحد أو اثنين.. وشاء لي القدر المؤقت أن أتجول فيها حيث كانت تبتسم لي يوما ليس ببعيد. ولكنها لم تبتسم! ولم تنظر نحوي حتى.. ولكنني لم اطلب منها ابتسامة.. طلبت من نسناسها أن يشي لي بأن جسدها بخير، ولكنه لم يفعل هو الآخر.. كانت بيوته تصرخ وشرفاتها تغني للموتى وللراحلين أغنية مزعجة.. وأحجار الطريق تنتظر من يركلها ليلا ويشاكسها حتى تتسلى..

هجرتي حتما مؤقتة.. فها هي الحرب انتهت.. ولكن المدينة أبدا ليست حيفا التي أحلم بها أو أحلم بالعودة إليها. في حلمي حيفا أخرى.. ليست حيفا التي تبتسم لي سرا وتغمزني دون انتباه أحد.. وها أنا أعود لأراها بين التفاصيل.. أحسد من هجروا الجنوب.. لا أشفق عليهم مثلكم، لأنهم عادوا إلى ديارهم الدائمة لا المؤقتة مثلي! فهناك سيرون صيدا علنا وليس سرا.. سيرون المدينة في كلّ شيء.. في الساحات والجبال والشمس والتراب وفي كل شيء جلي.. ستغني لهم المدينة أغنية العودة بصوت عال، وستعد لهم قهوتهم الصباحية ليحتسوها في العراء.. هناك.. قمر المدينة سيحكي لهم حكاية قبل النوم فيرقدون في حضنه آمنين.. شمس المدينة ستوقظهم باكرا، فلا أسقف تمنعها ولا زجاج يسمح لبعض أشعتها بالدخول.. شوارع المدينة الساحلية سترافقهم إلى أماكنهم ليعودوا ويدوسوا الأرض بعنف حتى يمحوا آثار الغارات الهمجية.. هناك ستقهقه صيدا.. أما مدينتي.. فستبتسم لي خوفا من أن يراها أو يسمعها أحد.. سأعود لألتقي بها سرا.. في الأزقة والحجارة الصغيرة وغرف الأصدقاء.. سأعود لأراها في زبد بحركم هذا وكرملكم الصامت.. سأعود وأغامر بمغازلتها وأنتم نيام.. سأسترق النظر إليها كلما سهت نفوسكم.. ستبقى هكذا وسأبقى هكذا إلى أن تسقط.. فسقوطها الأول كان النكبة.. أما الثاني فسيكون التحرير.. وعندها سأقول لكم: سقط القناع! هي التي نزعته من أجلنا.. اذهبوا إليها الآن وسترونها من دونه.

* صحافية فلسطينية
قرية دبورية ـ قضاء الناصرة

ب«ألم»: أحمد السنوسي*

بداية نهاية «العصر الاسرائيلي»
لنكن عونا للمقاومة لا عونا عليها

■ هناك تقاطعات في تاريخ الشعوب تبعث على التأمل والاندهاش. وبصفتي مغربيا فقد لمست في ملحمة حسن نصر الله اعادة انتاج مبهرة لملحمة بطل الريف المغربي محمد عبد الكريم الخطابي الذي قاد من 1921 الى 1926 ثورة ضد الاحتلالين الاسباني والفرنسي، بالاضافة الى مواجهته لمؤامرات داخلية مدبرة من سلطة محلية تعيش بالاملاءات الخارجية ولا تسعى سوى للحفاظ على ما تبقى لها من امتيازات وسلط شبه وهمية. وكان على الخطابي ان يخوض بوسائل محدودة حربا لا هوادة فيها على الجبهات الثلاث وحقق نصرا باهرا على جحافل أكبر جيشين نظاميين في العالم آنذاك بواسطة تكتيك حربي متحرك كان نواة لما سمي في ما بعد بحرب «الكريلا» اي مقاومة شعبية التي شهدت اوجها في الهند الصينية وساهمت في انتصار الشعب الفيتنامي على «النمر الورقي» الامريكي، كما كان يحلو لقادة حركة التحرير الفيتنامية ان يصفوا الولايات المتحدة الامريكية بها.

واذا كان الخطابي لم يستطع، لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها، الحفاظ على انتصاره الساحق على القوى الاستعمارية التي كانت تقتسم العالم كما تقتسم الكعكة، فإن زعيم حزب الله ومن ورائه الشعب اللبناني يواجه تحديا خطيرا في مجال تدبير انتصاره، الاول من نوعه، على اسرائيل. وكان حسن نصر الله قد خاض غمار الحرب بثقة وطمأنينة ورجاحة في التخطيط وادارة المعارك، اما بعد ان سكتت المدافع، مؤقتا، لأن اسرائيل كيان ارهابي عدواني لا ثقة فيه، فإن التعاطي مع الفوز التاريخي يبدو شاقا ويتطلب النفس الطويل بعد ان لاحت في الافق بوادر فتح جبهات معادية ليس مصدرها امريكا واسرائيل فقط، بل طبيعة التركيبة الداخلية اللبنانية من جهة، وتداعيات الصدمة المزمنة التي حلت ببعض الانظمة العربية المتخوفة من عدوى المقاومة وانتصار الفئة الصغيرة على الفئة الكبيرة بفضل الايمان الخلاق وليس ايمان الاستكانة والخنوع.

وكانت الولايات المتحدة ورأس حربتها اسرائيل قد خططتا منذ زمن بعيد لارساء «شرخ» اوسط جديد، لكن انتصار المقاومة اللبنانية قلب كل المعادلات رأسا على عقب، وفرض على الجميع، امريكيين واسرائيليين وعربا، اعادة ترتيب الاوراق ووضع مقاربات جديدة للتعاطي مع هذا الواقع الجديد الذي لم تتمكن من التكهن به حتى اكبر الاجهزة الاستخباراتية في العالم واكثرها دهاء ومكرا.

وبالنسبة للعالم العربي ظهر الشرخ واضحا بين الانظمة وشعوبها، وتجلت القطيعة في استفحال ظاهرة الريبة والحذر والتوجس لدى الحكام من «رعاياهم» اذا لم يعد هناك، منطقيا، من يستطيع ان يحمي الانظمة من شعوبها، اذا ما تم الايمان بكون المقاومة هي السبيل الاول والاخير نحو الانعتاق لشعوب حرمت من حقوقها كاملة ومورست عليها وصاية تامة بدعوى عدم نضجها وقابليتها للانخراط في قيم الحرية والديمقراطية والمنظومة الحقوقية.

وكان الانتصار الساحق للمقاومة اللبنانية بمثابة شرارة لكي تعيد الشعوب العربية طرح الكثير من الاسئلة، خصوصا بعد ان تم ايهامها لمدة نصف قرن بأنه لا جدوى من محاربة العدو لكونه لا يقهر بفعل قانون غير مكتوب. فأصبحت جيوش الدفاع العربية هي مجرد جيوش للدفاع عن المصالح وتحول كبار الضباط الى رجال اعمال متفرغين تماما للمضاربات البورصوية والعقارية والاستثمار المنتج للثروات دون حسيب او رقيب. وان كل هذه الاسلحة موجهة لصدور الفقراء والعاطلين ولكل من حاول الاحتجاج على الظلم والاستبداد من ابناء شعوبنا المضطهدة، ولعل هذه الشعوب اصبحت تتساءل اليوم، ما الجدوى من هذه الجحافل العسكرية وهذه الترسانات وصفقات الاسلحة الضخمة المبرمة على حساب الميزانيات العامة، وقوت الطبقات المسحوقة! وهو سؤال مشروع على كل حال، يمكن لأي دافع ضرائب ان يطرحه وله الحق في تلقي الجواب. لكن لا مجيب، لأن هذه الجيوش هي موجودة للدفاع وحماية الحاكم وليس للدفاع عن الاوطان والشعوب.

اذ ان غياب التمثيلية الشعبية الحقيقية في البرلمانات المزورة لن تفي بهذا المطلب، فالبرلمانات المغشوشة لا يمكن ان تنتج سوى تشريعات فاسدة وستكون عاجزة عن الاضطلاع بدورها في مراقبة الجهاز التنفيذي ومطالبته بالحساب.

ولعل هذه الشعوب تعتبر ان انتصار المقاومة اللبنانية هو بمثابة لحظة تاريخية ينبغي «القبض» عليها واستثمارها لتكون الشرارة التي تشعل «نارا مقدسة» تعيد ابداع الواقع العربي لتحرق ادغال الاستبداد، اذ ان من رمادها ستبعث الكرامة التي استبيحت، والتطلعات التي تم التنكر لها واغراقها في المياه الآسنة للوعود والايديولوجيات المتسلطة التي لا تضع في حسابها ارادة الشعوب القادرة على خلق المعجزات، ألم تعط المقاومة اللبنانية الدليل على ان الهزيمة ليست قدرا محتوما، بل هي مركب نفسي ومرضي صنعه اعداء الداخل والخارج من اجل «صناعة» اجيال عربية خانعة راضية بواقع الذل والهوان، وقابلة لفرضية كونها مجرد صدفة فارغة لا مجال لها لرفع صوتها في هذا العصر الاسرائيلي الوهمي؟ نعم لقد حطم حزب الله اسطورة الجيش الصهيوني الذي لا ينهزم.

لقد اقام الصهاينة وحلفاؤهم وادواتهم وعملاؤهم الدنيا ولم يقعدوها حين تحدث روجي غارودي عن «الاساطير المؤسسة» للكيان الصهيوني لكونه وضع الاصبع بشجاعة على مواطن الداء وفضح المسكوت عنه، وتنبأ بأن ما بني على باطل مصيره الى زوال مبين.

ويمكن لنا، وبنوع من الاختزال، ان نؤكد بأن المقاومة اللبنانية قد بشرتنا ببداية نهاية «العصر الاسرائيلي» الذي حلم خلاله مجرمو الحرب ومقترفو المجازر ضد الانسانية حكام تل ابيب بأنهم قادرون على تحويل كل الحكام العرب الى «ولاة» يأتمرون بأمرهم ويمررون المشروع الصهيوني المتلفع في مسوحات امريكية، لكون العالم العربي المنهك بسبب حكامه اصبح بدون مشروع، وبدون طموح سياسي او علمي او ثقافي، وشعوبه بدون حقوق ينخرها الجهل والفقر والجبروت. عالم عربي اخطأ كل مواعيده مع التاريخ ولم يتمكن من ركوب قطارات التحديث المؤسساتي الذي يراهن على صيانة الكرامة الانسانية ويعتبر المواطن، وليس الرعية هو الغاية الاسمى لكل مشروع مجتمعي.

ولعل حكام العرب، بعد ملحمة لبنان مدعوون الى استخلاص الدروس على وجه الاستعجال والتخلي عن عاداتهم القديمة في المراهنة على ضعف ذاكرة الشعوب، لقد حان وقت التغيير الحقيقي والمنازلة الشعبية قادمة لا محالة.

اذ ان انتصار المقاومة اللبنانية ليس مجرد حادث عابر بل هو زلزال حقيقي قادر على تجديد دماء امة اصبحت ترى النور في نهاية النفق، وتؤمن كما يقول زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي، لنكن عونا للمقاومة لا عونا عليها.

* فنان من المغرب